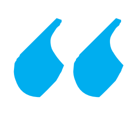
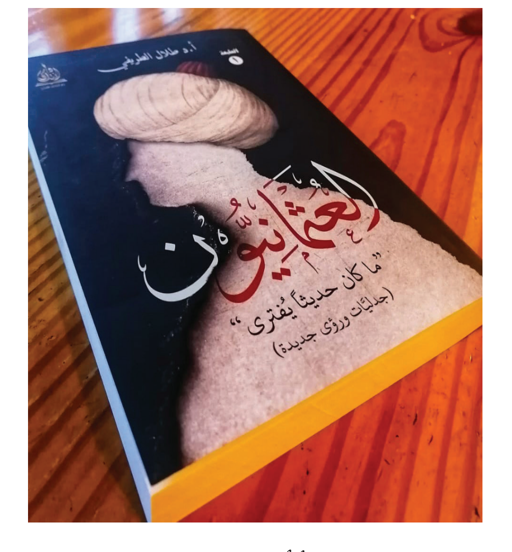
في صياغة التاريخ العثماني والسياسة التركيَّة المُعاصرة



طلال الطريفي*

لطالما كان التاريخ ميدانًا خصبًا للصراعات الأيديولوجيَّة والشُّعوبيَّة، وامتداداتها المُختلِفة بحسب عُمقها وارتباطاتها الوقتيَّة، لذا فإنه من المهم أن يُرافق الخوض في المفاصل الملتهبَّة تاريخيًا؛ عمليَّة تفكيكيَّة لفهم الماضي والحاضر، ورسم سياسات المُستقبل. ولو أننا أمعنّا النَّظر فيما نُعاصره من أحداث حاليَّة في الشَّرق الأوسط؛ سنجد أن كثيرًا من تفاعلاتها ذات ارتباطات وثيقة بالتاريخ الحديث، سواءً البعيد منه أو القريب، يؤكد ذلك ما تُمارسه الحكومة التُّركيَّة الحاليَّة من خلال حزبها الحاكم (العدالة والتنميَّة)، وما تفرضهُ من توتر مُتعمَّد في المنطقة العربية بشكل واضح ومدروس، مُحاكاةً للماضي التُّركي العُثماني.





فالعثمانيون الجُدُّد ينتهجون سياسة (حصان طروادَّة) في فرض حالة من التَّوتُر في الدَّاخِل العربي، على غرار ما فعله القُدماء منهم في اتخاذ السياسة ذاتها لفرض صورة تاريخية نمطيَّة في قناعات المؤرخين العرب قبل الأتراك.

والتَّجرُبة العُثمانيَّة القديمة قد تكون حقَّقت شيئًا من النجاح في توجيه مجموعة من المؤرخين والكُتَّاب العرب وفق ما تتأملَّه من رسم صورة تاريخيَّة إيجابيَّة، على رُغم فشلها السياسي على الميدان بمواجهةَ الكيانات السياسية



العربية التي طردتها من وطنها، باعتبارها دولة مُستعمرَة، استنزفت كل ما هو عربي لأربعة قرون من التاريخ تقريبًا.

الحكومة التُّركيَّة اليوم؛ تُحاول أن تستنسخ التَّجرُبة العُثمانية بشكل أكثر تطورًا وفاعليَّة، لتلافي الفشل السياسي السابق، وذلك باستخدام الأسلوب القديم ذاته، لكن هذه المرة بتوظيف الأيديولوجيا أكثر من التاريخ في العالم العربي بما يخدمها ويمكنها من تحقيق أهدافها، سواءً بالسيطرة وفرض الحالة العنترية، أو باستدرار الاقتصاد العربي لمصلحتها الخاصة، خاصةً وأن الميدان التاريخي قد صيغ ولا حاجة للتأكيد عليه أو الخوض فيه بعمق،

> **العثمانيون الجُدُد ينتهجون سياسة (حصان طروادَّة) في فرض حالة من التَّوتُر في الدَّاخِل العربي، على غرار ما فعله القُدماء منهم في اتخاذ السياسة ذاتها**

حتى لا تهتز الصورة المرسومة والمُفتعلَّة سابقًا، بمزيد من البحث والكشف عن تلك الحالة الافتراضية للتاريخ.

لذلك نجد أن الاندفاع من الطرفين التُّركي والعربي المُؤدلَّج خلال السنوات الأخيرة المُعاصرة بات مفضوحًا، ويُمارس بشكل عَلني في العمل المُنهج والمُشترك، الأمر الذي عمل على عزلٍ تلك التيارات العربية المتأتركة والمتأدلجة أمام رجل الشارع المُتابع للمشهد، الذي وعى بأن كثيرًا من الطَّرح والتلميع للجانب التركي المعاصر أو الماضي العثماني، ما هو إلا تكريس لمزيد من التمكين للتطرُّف بشقيه الدينيً والسياسي، لتحقيق المكاسب استنزافًا لكل ما هو عربي؛ ولو أننا فقط لفتنا النظر إلى ما يُمارس من تركيا في دعم الجماعات المتطرِّفة، سواءً كانت على هيئة أحزاب أو جماعات وميليشيات، فإن ذلك يدلّ على بيان الأهداف الاستعمارية وفرض حالة الوصاية، كما هو مُمارس حاليًا في الانبطاح الحكومي القطري، أو العدوان على المنطقة العربية في ليبيا.

ما لم يتم التنبُّه له من قبل الحكومة

التركية ولا الجانب المُتطرِّف العربي؛ أن تتم حالة الكشف عن التاريخ الحقيقي للأتراك، بعيدًا عن الافتراضية التاريخية، الذي تتم محاكاتها حاليًا بأدوات متشابهة مع الماضي. ومن أكثر الأمور المُزعجة لهذا التكتل المُتطرِّف، أن تتم إعادة قراءة الفكر والتاريخ الإسلامي والعربي من جديد، الذي يكشف حقيقة الدولة العثمانية، وينسف حالة التباكي على فردوسها المزعوم، ويُبيِّن ماضيها البغيض في العالم العربي، الذي كان استعمارًا حقيقيًّا باسم الدين، ولم يُورث سوى التخلُّف والجهل.

ولو أننا أردنا أن ننقض الزَّيف التاريخي، فإنه يجب علينا أن نعي المراحل التي مرَّت بها كتابة التاريخ العُثماني في الفترة الحديثة، من خلال شخوص مُثلُّوا للمُتخصِّصين على أنهم مثاليون وإسلاميون في الوقت ذاته، وذلك من خلال تفسيرهم الديني للتاريخ بما كان يخدم العثمانيين.

"المُحامي" من أوائل "مؤدلجي" التاريخ العُثماني:

ومن أبرز أولئك المؤرخين، محمد فريد بك المحامي، الذي صوَّر الدولة العثمانية على أنها تمثل قوة رمزيَّة للإسلام ومرحلة المجد فيه من خلال كتابه (تاريخ الدولة العليَّة العُثمانيَّة)، الذي اكتسب قوةً وعمقًا باعتباره أحد الزعماء الوطنيين في مصر بداية القرن العشرين، في الفترة التي توافقت مع تسارع انهيار دولة العثمانيين وغرقها

> **الحكومة التُّركيَّة اليوم تُحاول أن تستنسخ التَّجرُبة العُثمانية بشكل أكثر تطورًا وفاعليَّة لتلافي الفشل السياسي السابق وذلك باستخدام الأسلوب القديم ذاته لكن هذه المرة بتوظيف الأيديولوجيا أكثر**

الأخير، وتشبثها بأي خطة إنقاذ كان آخرها (الجامعة الإسلامية) التي نادى بها عبدالحميد الثاني، وباعتبار أن المُحامي مُرتبطٌ بالحزب الوطني، الذي كان بدوره منتميًا للدولة العثمانية سعيًا للخلاص من الاحتلال البريطاني، لذلك جاء تصوير المُحامي لـ "العُثمانية" بمثاليَّة إسلاميَّة لأهداف آنيَّة في وقته، ولظروف سياسية ربطتّه بدولتهم، فصارت كتاباته افتراضيَّة بما يتواءم مع كونه يمثل وجهة النظر الرسمية للدولة العثمانية.

وحينما نقول إن ما كتبه المُحامي افتراضيًا؛ فلأنه تجاهل مُتعمِّدًا حالة التَّدهور والخراب والإهمال التي أحدثها العثمانيون في العالم العربي ومصر تحديدًا منذ استعمارهم لها في عهد سليم الأول إلى وصول محمد علي باشا إلى ولاية مصر ومن ثم استئثاره بها عن العثمانيين، حين عمل على إحياء النهضة فيها، بعد أن عانت قرونًا من التجهيل المُفتعل.

محمد فريد بك لم يستطع إخفاء هدفه الذي أعلن عنه كأساس لكتابه،

الـذي يُعـدُّ من أبـرز الحجـج للمدافعين المتخصصـين عن الدولـة العثمانية، كتب التاريـخ من منطلـق أيديولوجـي صرف، وكان ينافـح بذلـك عـن قضية سياَسـية أكثـر مـن كونـه كاتبًـا وواعيًـا للتاريـخ علـى حقيقتـه أو مُتحريًا لـه، لذلك كتب التاريـخ العثمانـي بتنقيتـه مـن الجرائم علَّـه يُحقق شـيئًا مـن الإنقـاذ لواقعٍ كان يُعا يشه .

"الشِّنَّاوي" مـؤرخ الاتجاه الإسلامي بعد ستينيَّات القرن العشرين:

وبعد هذا النمـوذج الذي صاغ التاريخ بشـكل افتراضـي أيديولوجـي، أخـذ الإسـلاميُّون المُتحزِّبـون بشـكل مُتطرِّف هـذا المنهـج علـى أنـه الأسـلمً والأنفـع لقضيتهـم، فبعد علـوّ النَّبرة الإسـلامية أعقـاب ١٩٦٧ أعيـد بعـث مثـل هـذا النَّهـج، وتصويـر الدولـة العثمانيـة على أنها تُمثل دولة الخلافة الإسـلامية، على الرغم مـن تناقضات هـذا الزَّعم لخُلفاء لا تنطبـق عليهـم الشـروط الفقهيَّـة في الولايـة العامـة للنـاس، التـي تتلخـص في مناقضتهم لشِـرط النسـب القُرشـي باعتبارهـم أتراكًا، ولكونهـم دخلوا العالم العربي والإسـلامي كغُزاة بصـورة قهريةٍ تتناقـض مـع مبدأ الشـورى. ونتيجـةً لهـذا التوجُّـه، بـدأت اسـتثارة القضيَّـة الفلسـطينية كمدخل مهم في اسـتنهاض العاطفـة التاريخيـة بمـا يتوافـق مـع العثمانيـين، والتغنـي ببطولة عبدالحميد الثانـي المزعومـة بحيلولتـه دون هجـرة اليهـود إلـى أرض فلسـطين، مقابـل أن اليهـود كانـوا على مـرِّ التاريـخ العثماني كالطفـل المُدلَّل بالنسـبة للعثمانيين، بدءًا

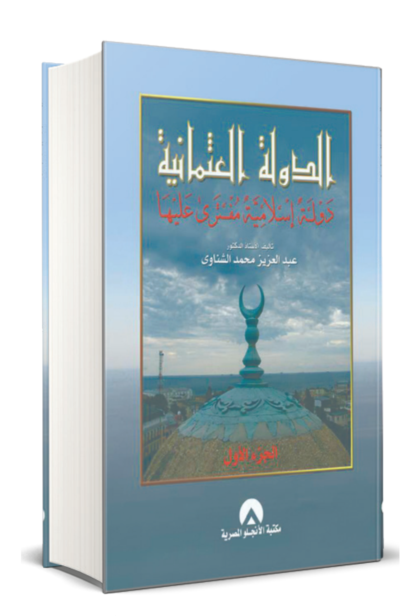


السلطان عُثمان الثاني

بالتأكيـد على فكـرة أن العثمانيين جاءوا بقَدَرٍ إلهي لإنقاذ الأمة الإسـلامية، فيما أنهـمً في حقيقـة الأمـر جـاءوا برائحـة الموت وأشـبعوا الأرض بالجثـث العربية، التـي قُتلـت مـن دون أدنـى ذنب، سـوى أنهـا إما كانـت مُدافعة عـن أوطانها، أو لكونها كانت في طريـق الغُزاة العابثين في الشـوارع العربية، فلم يكونـوا يُفرِّقوا بين مُقاتل ولا رجل مُسـالم أو شـيخ وطفل أو امـرأة، كمـا لـو كان الموت والقتل قسـمًا عليهـم أتوا ليبـرّوا به بـين الأبرياء.

وبنـاءً عليـه فـإن محمـد فريـد

من احتوائهم لهم بعد سقوط الأندلس إلى تسليمهم اقتصاد الدولة ودعمهم لهم في كل مجال، في حين أن العثمانيين لم يقوموا بدورهم الإسلامي تجاه مسلمي الأندلس كما قاموا بدورهم تجاه اليهود، وكانت أبرز الكتابات التي توافقت مع هذه الفترة، ما ألَّفهُ عبد العزيز الشنَّاوي (الدولة العثمانية دولة إسلامية مُفترى عليها) في أربعة أجزاء، تبيَّن فيه هدفه من عنوانه بالتركيز على البُعد الديني، والتأكيد على حالة الافتراء التاريخي تجاه العثمانيين، إذ حصرَ كتابه في اتجاه واضح، موجه لجمهور مُحدَّد متوافق مع المرحلة التي صدر فيها الكتاب، كما وقف بشكل مُضاد لاتجاهين كتبا التاريخ العثمانيَّ قبله: المستشرقون، والقوميون العرب، أما ما كتبه ردًا على المستشرقين فكان استجابة انفعاليَّة ذات بُعد إسلامي في مواجهة ما أُلِّف من المستشرقين عن العثمانيين، بينما أنه من الطبيعي أن تكون وجهة النظر الغربية مضادة للتاريخ العثماني، باعتبار حالة الصراع التاريخي والسياسي، وبالتالي فإن القارئ المُتخصِّص يعي بشكلٍ جيد أبعاد هذه الكتابات ودوافعها، ويستطيع أن يُميِّز الحقيقي منها والمُفتعل أو المُزيَّف، غير أن أمرًا كهذا لم يكن مطروحًا في أجندَّة الإسلاميين المُتأثرين بمناخ نهضوي جديد، وبعث لإحياء الوصاية الفكرية، فراحوا يعمقُّون نظرية المؤامرة، وكان التاريخ ميدانًا خصبًا لهم في هذا الاتجاه لاستعراض قواهم في تفنيد ما لا يحتاج لمزيدٍ



من البحث، باعتبار أن ما كُتب عن التاريخ الإسلامي والعثماني من قبل المستشرقين المتأزمين، واضح وبيِّن، غير أن الأمر لم يقتصر على ردِّ الشُّبهة التاريخية المُفتعلة، بل تعدى إلى ردِّ أي سلبية عثمانية، سواءً أكانت مُفتعلة أم حقيقيَّة، هذا ما أرخى بظلاله على كتاب الشنَّاوي، إذ جاء طرحه باستثارة الشُّبهة وردَّها أو تبريرها من باب الدِّفاع.

أيضًا لم يقتصر الشنَّاوي في دفاعه ضد المستشرقين، إذ وقف الموقف ذاته ضد القوميين العرب ممن ألَّفوا وكتبوا التاريخ العثماني، وراح يصوِّرهم كعامل هدم رئيسي للدولة العثمانية، وبأن الاستعمار استغلهم في سبيل تحقيق

> **لدحض الزَّيف التاريخي يجب أن نعي المراحل التي مرَّت بها كتابة التاريخ العُثماني من خلال شخوص مُثلُّوا للمُتخصِّصين على أنهم مثاليون وإسلاميون وذلك من خلال تفسيرهم الديني للتاريخ بما كان يخدم العثمانيين**

أهدافــه، وهــو بذلك يتهمهم بشــكل غير مباشــر بالخيانة للأمة الإســلامية، وراح يســتعرض رحمــة العثمانيــين بالعــرب وحمايتهــم لهــم علــى مــرِّ تاريخهــم في العالــم العربي مــن الأخطــار الخارجية.

ونحــن هنــا لســنا بصــدَّد الدَّفاع عن المؤرخــين القوميين بقدر مــا نَود أن نؤكد علــى أن ما كتبه الشــنَّاوي من تعدَّاد لمآثر العثمانيــين في الوطن العربــي ردًا عليهم، مــا هــو إلا حالــة مــن التغاضــي المُتعَمَّد لجرائــم الدولــة العثمانيــة ضــد العرب، بهــدف التأكيــد علــى التفســير الدينــي للتاريــخ، وتجاهــل العذابــات العربيــة مقابــل دعــم المــدَّ الإســلامي الناهــض

> **لو أردنا إحصائية لعدد العرب الذين ارتكبت بحقهم المذابح العثمانية التركية فإننا سنصل إلى رقم يصل إلى أكثر من ٦٠٠ ألف نفس بشرية تم إزهاقها على يد العثمانيين بمذابح مختلفة**

في فتــرة مــا بعــد ١٩٦٧م، لأن مُجــرّد الاعتــراف بــأيٍّ مــن الجرائــم التارِيخية للعثمانيــين، قــد يشــوِّه الاتجــاه الأممي العــام، الــذي كان يحيــا فتــرة صعــوده وعلــو نبرته.

وإلا فتلــك التفاصيــل الدقيقــة التــي طرحهــا عبدالعزيــز الشــنَّاوي في كتابــه الضخــم، تعمَّــد ألا يُضمــن فيهــا مــا أحدثــه العثمانيون من فضائــع تاريخية، ســواءً حينما أسقط سليم الأول الشام أو مصــر ومن ثم فرض ســيطرته على أكثر أجــزاء الوطن العربــي بالقــوةِ والقهر.

وبنــاءً عليــه فــإن مــن جــاءوا بعــد الشــناوي وقبله المُحامــي، انتهجوا النهج ذاتــه في الكتابة التاريخية، بعدم اســتثارة قضايــا قــد تشــوِّه النظــرة الإســلامية للتاريــخ العثمانــي، وتنقــض جهــود مؤرخــين كُثُــر عملوا علــى تكريس صورة نمطيَّــة عامــة للعثمانيــين، فكيــف يوفق هــؤلاء بــين مجموعــة مــن المتناقضات، فيمــا لــو ناقشــوا أو اســتثاروا قضايــا الجرائــم العثمانيــة ضــد العــرب؟

وهنا سنضطر إلى أن نورد مثالين فقط على هذه المتناقضات:

المثــال الأول: يقــول الشــناوي: "ومنذ مطلــع القرن العشــرين ارتفعــت أصوات بعــض الباحثين وأشــباههم ممن ليســت لديهــم خلفيــة تاريخيــة ســليمة وعميقة يصفــون الاحتلال العثماني للعالم العربي بأنــه كان شــرًا مســتطيرًا، ولعــل أحدث هــذه الأصوات ما كتبه بعض مستشــاري الرئيــس الراحــل جمــال عبدالناصــر رئيــس الجمهوريــة العربيــة المُتَّحِــدة في

الميثاق الذي صدر في الحادي والعشرين من شهر مايو عام ١٩٦٢، إذ قالوا إن هذا الاحتلال كان استعمارًا مقنعًا باسم الدين، والدين منه براء. وهم يجهلون أو يتجاهلون عدة حقائق مهمة، منها أن المجتمعات في العالم العربي وقتذاك كانت مجتمعات دينية إسلامية بكل ما تحمله هذه العبارة من مدلولات، وأن الوشيجة الدينية ربطت المسلمين من رعايا الدولة بالسلطان العثماني بعروة وثقى على أساس أن السلطان كان الرَّئيس الأعلى لأكبر دولة إسلامية في العالم". (عبدالعزيز الشنَّاوي، الدولة العثمانية دولة إسلامية مُفترى عليها، (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨٠)، ١: ٢٥-٢٦).

ولو أننا فقط قمنا بتفكيك هذه الفقرة المُقتضبة من حديث الشنَّاوي، سنجد أنها تتعارض تمامًا مع الواقع التاريخي للعثمانيين في العالم العربي، وسياستهم ضد سكانه، إذ أن الشنَّاوي استخدم أسلوب الخُطبة الارتجالية، بعيدًا عن التاريخ الحقيقي، فحين يذكر بأن المجتمعات العربية دينية إسلامية وأنها مرتبطة بوشيجة الدين مع السلطان العثماني، فهذا حديث لا يمت للجانب العلمي بأيِّ صلَّة، إذ أن الواقع يقول إن العثمانيين استعمروا العرب بالقهر والقوة، يدلل على ذلك ما وصفه ابن إياس على سبيل المثال عن قهر العثمانيين للعرب بقوله: "وفي مدة إقامة ابن عثمان بمصر لم يجلس بقلعة الجبل على سرير الملك جلوسًا عامًا، ولا رآه أحد، ولا أنصف مظلومًا من ظالمٍ في محاكمته، بل كان مشغولاً بلذته وسكره وإقامته في القياس بين الصبيان المُردة، ويجعل الحكم لوزرائه بما يختارونه. فكان ابن عثمان لا يظهر إلا عند سفك دماء المماليك الجراكسة، وما كان له أمان إذا أعطاه لأحدٍ من الناس، وليس له قول ولا فعل، وكَلامه ناقص ومنقوص لا يثبت على قول واحد". (محمد بن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق: محمد مصطفى، ط٣ (القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية، ٢٠٠٨م)، ٥: ٢٠٧-٢٠٨).

> من أبرز المؤرخين للدولة العثمانية محمد فريد بك المُحامي الذي صوَّر الدولة العثمانية على أنها تمثل قوة رمزيَّة للإسلام من خلال كتابه (تاريخ الدولة العليَّة العُثمانيَّة)

ويضيف أيضًا: "وأما عسكره فكانوا جوعاني العين نفسهم قذرة، يأكلون الأكل وهم راكبون خيولهم في الأسواق، وعندهم عفاشة في أنفسهم زائدة وقلة دين، يتجاهرون بشرب الخمور في

> تاريخهم المتأخِر في الحرمين ختموه بقصف الكعبة المُشرَّفة سنة ١٩١٦ حينما أعلنت قوات الشريف ثورتها عليهم



الأسواق بين الناس، ولما جاء عليهم شهر رمضان فكن غالبهم لا يصوم ولا يصلي في الجوامع ولا صلاة الجمعة إلى قليل منهم، ولم يكن عندهم أدب ولا حشمة، وليس لهم نظام يعرف لا هم ولا أمراؤهم ولا وزراؤهم وهم همج كالبهائم". (ابن إياس، بدائع الزهور، ٥: ٢٠٨).

وهنا لو أننا فقط حاولنا المُقارنة بين ما كتبه الشنَّاوي وما وصفه ابن إياس، فإننا لا يمكن أن نتخيل بأنهما يتحدثان عن موضوع واحد في النظرة التركية العثمانية تجاه العرب، وسياستهم تجاههم. وعلى الرغم من أن ما كتبه الشناوي عن العثمانيين والعرب يمثل نظرة تمتد لأكثر من أربعة قرون تقريبًا، فيما أن ابن إياس يصف ابتداء الحال مع العثمانيين، إلا أن الواقع الذي امتدَّ منذ البداية الأولى للعثمانيين في العالم العربي كان مريرًا، باستنزاف الثروة العربية، وجعل العرب في مرتبة أقل بكثير من العنصر العثماني التركي، وتعاملوا مع الولايات العربية بكل قهر وقوة وظلم، وقد يكون لموضوع واحد فقط ما يكفي عن ذكر مآسيهم، من خلال ولاتهم الفاسدين في الولايات العربية، وكتب التاريخ ووثائقه كفيلة بذلك لمن أراد الاستزادة حول ذلك.

المثال الثاني:

وحتى لا نَغرق في النقولات، فإن الشنَّاوي أكد في كثير من مواضع كتابه على خدمة العثمانيين للحرمين الشريفين، فيما أن الواقع يقول إنهم خدموا الحرمين لهدف وحيد، وهو الدعاية السياسية لإمبراطوريتهم التي تفرض على أساسها مسؤوليتها على أكبر بقعة جغرافية من العالم الإسلامي، ومن ثم تُضفي عليهم طابعًا يجعل من سلطتهم محلَّ قداسة بحسب ما كانوا يسعون إليه.

وللتأكيد على أن العثمانيين لم يقوموا بخدمة الحرمين الشريفين بشكل يوحي برغبة جامحة، وخدمة للدينً الإسلامي، فإنه لم يقُم أيُّ

سُلطانٍ من سلاطينهم بزيارة الحرمين أو أداءً فريضة الحج، وهذا مما هو ثابتٌ تاريخيًا، على الرغم من محاولات بعض المؤرخين تبرير ذلك بشكل أو آخر، وإلا فإن خدمة الحرمين الشريفين تقتضي رعاية الحاكم لهما وزيارتهما والوقوف على ما يُقدَّم من خدمات يُعتبر مسؤولا عنها بشكل مُباشر كما ألزم العثمانيون أنفسهمً خلال فترة سيطرتهم على الحجاز، حتى أن هُنالك ما بحثه الكثيرون حيال مسألة الحج، ولعل في اغتيال عُثمان الثاني (١٠٢٧-١٠٣١هـ/١٦١٨-١٦٢٢م) لنيته الذهاب للحج، ما يُثير فضول الباحثين عن الحقيقة التاريخية، بل على العكس تمامًا، قاموا بما يجعل من تاريخهم في الحرمين مُخجلا، وهذا من أبرز الأمور التي تغاضى عنها الداعمون للاتجاه الإسلامي في كتابة التاريخ العثماني، ومنهم المحامي والشنَّاوي، لذلك لا يمكن أن نجد في كتاباتهم ما يُشير لكثير من الجرائم التي اقترفوها في الحرمين، ابتداءً من تاريخهم المُبكر سنة ٩٣٢هـ/١٥٢٥م عندما استباحت جيوشهم الحرم المكي كما جاء في وصف ابن فهد المكي بقوله: "وقد عملوا بمكة أعمالا شنيعة، من هجم بيوت الناس، وإخراجهم منها مع حريمهم، ووضع أيديهم على أمتعتهم وإتلافها، وسكنهم فيها عوضهم، فيستغيث الناس فلا يجدون من يغيثهم إلا الله تعالى، وكثر ضررهم بذلك، وصار يدعو عليهم كل قاطن وسالك، ثم إنهم تمادوا بالأذى، وتجاهروا بالفسق في النساء، وأخذ المأكولات من السوقٍ بثمن بخس، وبعضهم لا يعطي شيئًا". (جار الله بن فهد، نيل المنى بذيل بلوغ القرى لتكملة إتحاف الورى، تحقيق: محمد الهيلة، مكة المكرمة: مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، ٢٠٠٠)، ١: ٣٥٨-٣٥٩).

أما تاريخهم المُتأخر في الحرمين فقد ختموه بقصف الكعبة المُشرَّفة سنة ١٩١٦ حينما أعلنت قوات الشريف ثورتها عليهم، إذ لم يراعوا حُرمة الحرم ولا الكعبة حين أطلقوا نيران مدافعهم من قلعة أجياد صوب البيت الحرام من فوق الحجر الأسود، وأشعلوا النار في ستار الكعبة، وأصابوا أروقة المسجد بقنابلهم. (عبد الله بن الحسين، مذكراتي، عمَّان: الدار الأهلية، ١٩٨٩، ١١٤-١١٦).

وفي المدينة المنورة يكفي فقط اسم فخري باشا، الذي لم يراع حرمة الحرم النبوي، بالتهجير القسريَ لسكان المدينة في حادثة "سفربرلك"، وفرض حالة المجاعة التي جعلت الناس تأكل القطط وتنبش قبور الموتى لأكل جثثهم، والمذابح التي قام بها ضد أهالي القرى والبساتين القريبة من المدينة المنورة،

"محمد فريد بك لم يستطع إخفاء هدفه الذي أعلن عنه كأساس لكتابه بالتأكيد على فكرة أن العثمانيين جاءوا بقَدَرٍ إلهي لإنقاذ الأمة الإسلامية"

الشنّاوي أكد في كثير من مواضع كتابه على خدمة العثمانيين للحرمين الشريفين فيما أن الواقع يقول إنهم خدموا الحرمين لهدف وحيد وهو الدعاية السياسية



حين أشعل النار في البساتين وأطلق نيران المدافع صوب البيوت والأهالي، فقتل الشيوخ والنساء والأطفال، حتى أن النساء المقعدات والكبيرات في السن متن في بيوتهن التي لم يستطعن مغادرتها جراء القصف، إضافةً إلى ما قام به من نشر المتفجرات في الحرم النبوي والحجرة النبوية والتهديد بتفجيرها، وسرقة المقتنيات النبوية والمكتبات.

كل هذه التفاصيل لا يمكن أن يناقشها أي مؤرخ مؤدلج وموجه للدفاع باستثارة العاطفة الدينية تجاه العثمانيين، لذلك لا يمكن أن تكون تلك الكتابات التاريخية سوى جريمة في حق العرب والمسلمين في العالم العربي، لأنها هونت وقللت وتجاهلت الجرائم العثمانية التركية تجاه العرب.

ولو أننا فقط أردنا أن نقوم بإحصائية مبدئية لعدد العرب الذين ارتكبت بحقهم المذابح العثمانية التركية، فإننا مبدئيًا سنصل إلى رقم يصل إلى أكثر من ٦٠٠ ألف نفس بشرية تم إزهاقها على يد العثمانيين بمذابح مختلفة وفي فترات تاريخية منفصلة، هذا ناهيك عما يتم من قتل بناء على الفرمانات التي أعدم جماعات من العرب بناء عليها؛ ولو أننا قمنا بإحصائية من خلال المصادر والمراجع التاريخية للمذابح وحالات القتل التي مارسها العثمانيون، فإننا حتمًا سنتعدى أكثر من مليون عربي، وهذا مما يدعونا إلى أن نطالب كعرب باعتراف تركي رسمي بتلك المذابح التي أقيمت ضد العرب في فترة الاحتلال العثماني.

أخيرًا وبمقارنة الواقع الحالي في المشهد السياسي العربي والتركي مع الماضي العثماني في العالم العربي، فإن المحاكاة باتت ماثلة وواضحة، وتكرار التجارب أصبحت ممجوجة، ولا خلاص إلا بالوعي العربي العام للفظ التاريخ العثماني المركب افتراضيًا، ومعه مواجهة السياسة التركية الحالية، ورمي الاتجاه العربي المؤدلج، الذي يسعى لتحقيق مصالح خاصة للميليشيات وأحزاب وجماعات لم تورث سوى الدمار والخراب في بلدانها.

ويبقى التاريخ ميدانًا مُليئًا بالتوجهات والحسابات التي تحتاج إلى تفكيك ودراية ووعي، لأنه لا يمكن أن يحنو على تاريخنا سوانا، ولا ينقيه إلانا، بكشف خباياه المغيَّبة والأكاذيب المفتعلَّة فيه بقصد التوجيه والتأثير سواءً لخدمة أهداف سياسية استعمارية كما المثال التركي، أو خدمة أطراف متطرفة إرهابية يستخدمها الأتراك كـ "طروادة".

*** أكاديمي وإعلامي سعودي**